المحور الثاني

إيران وتوازن القوي بين الغرب الأوربي والشرق السوفييتي

البعد الجيوبولوتيكي لإيران في استراتيجية الغرب الأوربي الأمريكي والشرق السوفييتي

المقصود بالبعد الجيوبولوتيكي هو استخدام الغرب لنظريات الجغرافيا السياسية التي اتجهوا إليها أثناء الحقبة الاستعمارية ونتيجة لها والتي ارتبطت بمحاولاتهم للسيطرة علي العالم ، ثم استيضاح مدى أهمية منطقة الشرق الأوسط ، وإيران علي وجه الخصوص ، ومدي سعي الغرب لتطبيق نظرياته .

وهذا الفرع من التنظير الذي استهوي الكثير من العلماء الأوربيين تناغم مع تطلعات الكثير من المغامرين وصنّاع السياسة الأوربية وأصحاب المصالح الاقتصادية والغلو العرقي والغطرسة الحضارية في محاولاتهم لإيجاد ما يبرر لهم توجهات الهيمنة علي جانب من العالم أو حتى علي بعضهم البعض .

وتعود أولي هذه النظريات لأحد العلماء الألمان والتي طرحها في أعقاب نجاح بسمارك في توحيد ألمانيا ١٨٧٠ م حيث نادي من خلالها بالدولة العالمية والقوة الواحدة المهيمنة .

وتبعه عالم ألماني آخر هو "كيلين" فطرح نظرية القوة الثنائية التي كان يعني بها قوة البر والبحر والتي عرضها ١٩١٧ م من خلال كتابه " الدولة تكوين حي " إبان الحرب العالمية الأولي . وذهب كيلين إلي أن القوى العالمية سوف تنحصر آخر الأمر في قوتين متصارعتين للبر والبحر ، وتوقع أن ينتهي الصراع إلي انتصار قوة البر نهائيا وبالشكل الذي يؤدي إلي سيطرتها علي البر والبحر معا ، وحدد هذا العالم بأن ألمانيا هي تلك القوة الأوربية

البرية والبحرية الكبرى المهيأة لهذا الدور. وأسهمت هذه النظرية في ترسيخ قناعة لدى أغلب الساسة وبعض المفكرين الألمان بهذا الدور في الحربين العالميتين.

وطرح عالم آخر وهو "هاوس هوفر" نظرية أخري أسماها القوة الثلاثية توصل فيها إلي أن العالم لا يمكنه أن يستوعب أكثر من ثلاث قوي رئيسية، واقترح أن تكون ألمانيا فوق أوربا وإفريقيا، واليابان فوق آسيا واستراليا، والولايات المتحدة الأمريكية فوق الأمريكتين.

وجاء "ماكيندر"، البريطاني الأصل والذي عمل كمستشار لهتلر، فطرح نظرية أخري هي نظرية قلب الأرض والتي استفاد فيها من سابقيه ورأي ما آلت إليه تطبيقات نظرياتهم خلال الحربين العالميتين وإلي المزلق التي تخللتها. وبني "ماكيندر" نظريته علي الحقائق الجغرافية والتاريخية التي تري أن تركّز وتجمع القاعدة الأرضية إلي جانب الجبهة البحرية والممرات الطبيعية وخصوبة التربة من شأنه أن يهيئ الطريق لقيام إمبراطورية عالمية واحدة.

ورشّح "ماكيندر" كتلة اليابس الآسيوأوربية كمنطلق لهذه الإمبراطورية، وذكر أن من يمتلك قلب الأرض يمكن أن يتوسع في الهلال الداخلي والهلال الخارجي بعد ذلك إلي أن يتمكن من الهيمنة علي العالم كله.

وحاول "ماكيندر" من خلال هذا الطرح أن ينبّه السياسيين في بلده الأصلي بريطانيا من أن التركيز علي القوة البحرية وحدها لا يؤهلها للاستمرار كقوة مهيمنة أحادية، وأن القوة البرية التي أشار فيها لألمانيا كانت بحكم عمله قريباً من هتلر من أنها هي الدولة المرشحة لذلك، في حين أخفي حقيقة أن الاتحاد السوفييتي هو الأقرب لهذه الإمبراطورية وهو الأمر الذي أكده بعد ذلك.

وظلت نظرية "ماكيندر"، الذي أحاط به الأمريكيون قبل وفاته عند دخولهم ألمانيا عقب انتهاء الحرب، هي النظرية الأقرب إلي الساسة وصناع الاستراتيجيات، وكذلك تلاميذه الذين طرحوا نظريات شكّلت نظرية "ماكيندر" محورها الرئيسي ، لا بالنسبة للمحور الغربي الأمريكي وحده بل ببقية القوي الدولية إبان الحقبة التي عرفت بالحرب الباردة وحتى حدوث التطورات الجيواستراتيجية بعد دخول القوي الجوية والصاروخية واجتياز الفضاء .

واتجه بعض علماء أوربا علي ضوء تأثرهم بنظرية ماكيندر وتلاميذه إلي اعتبار أن الحلفاء الأوربيين قد لحقت بهم الهزيمة في الحرب الثانية رغم إعلان انتصارهم وذلك لأن قيامهم بتحطيم ألمانيا يعد تبعاً لذلك خسارة كبيرة لهم لكونها تمثل ـ جغرافيا وعسكريا ـ الرادع الأقوي وخط الدفاع الأساسي أمام إمكانية إقدام السوفييت علي اجتياح قارتهم ، وأن أوربا أصبحت بعد هزيمة ألمانيا ودخول السوفييت إلي أوربا حتى شرق ألمانيا لا تتحمل سوي فترة وجيزة من احتمال احتلال السوفييت لها . ولهذا اتخذ الأوربيون ومعهم الأمريكيون من ألمانيا الغربية قاعدة عسكرية مدعمة لمواجهة مثل هذا الاحتمال ، كما أنهم ـ أمام قوة السوفييت المتنامية ـ قد اتجهوا إلي جعل الشمال الإفريقي العربي خط دفاع ثاني يمكّنهم من الدفاع عن قارتهم في حال حدوث غزو سوفييتي لأراضيهم .

وشهدت الحرب العالمية الثانية علوّاً لقوة الولايات المتحدة الأمريكية سلمت به أوربا واتجهت إلي التحالف معها حيث لم يكن لها أمام ذلك سوي اتباع سياسة مشتركة في ظل قيادة أمريكية تمكنها من الوقوف أمام السوفييت الذين كانوا يتبنون أيديولوجية اشتراكية شيوعية تهدد النهج الرأسمالي الأوربي وتحول دون اتباع أوربا لسياسة التقارب معه.

وإبان هذه الحقبة طرح أحد علماء الجيوبولوتيكا الأمريكيين وهو "ماهان" نظرية أخري مبنية علي ما سبقها من نظريات وهي نظرية القوة البحرية المهيمنة ، وقد توصل إليها علي ضوء السيادة البريطانية العالمية القديمة والتي استمرت لفترة زمنية طويلة . ودعا "ماهان" الولايات المتحدة الأمريكية إلي تبني الاستراتيجية البحرية التي لا تعوزها القاعدة الأرضية مساحة أو نوعية ، ورأي أن اتباعها أو تبنيها سيمكّن الأمريكيين من تحقيق حلم الإمبراطورية الواحدة .

وفي نفس الوقت اقتنع السوفييت بنظرية القوي الأرضية ووسط اليابس التي طرحها "ماكيندر" وبعض تلاميذه ، وأسهم ذلك في اتجاه كل من الأمريكيين والسوفييت إلي تلمس الطريق إلي تحقيق الحلم الإمبراطوري ، وتبني كليهما استراتيجية التوازن والصراع والاستقطاب للقوي الإقليمية في العالم ، وهو ما عرف بالحرب الباردة .

وتوافق توجّه الأوربيين مع الأمريكيين في تبني سياسة استراتيجية حركية تقوم علي إنشاء سلسلة من الأحلاف العسكرية المتصلة ، أو ما عرف بالأحلاف البادية الناهية والتي تعني أن الدولة التي تنتهي بحلف تبدأ هي بحلف جديد ضماناً لقوة وترابط وإحكام هذه السلسلة وبحيث تنجح في تطويق الاتحاد السوفييتي من الغرب والجنوب جغرافيا .

والتقي المنظّرون الاستراتيجيون مع السياسيين في أن قوة هذه الاستراتيجية وإحكام هذه السلسلة لا تقتضي وجود حلقة واسعة أو حلقة ضعيفة فيها حيث يسهم ذلك في تمكن السوفييت من اختراقها وإضعافها أو حتى إنهائها من خلال الالتفاف حولها وتقويضها .

ووجد الغرب أن هذه الحلقة الضعيفة في سلسلة الأحلاف موجودة جغرافيا في منطقة الشرق الأوسط ، وهو الأمر الذي دعاهم ومعهم الأمريكيون بالطبع إلي السعي لربط

دول الشرق الأوسط بهذه السلسلة من الأحلاف العسكرية ، لكن بعض القوي الإقليمية القومية التي كانت قد تحررت حديثاً من الاستعمار الأوربي ، والتي كان "جمال عبد الناصر" في مصر من أبرز ممثليها ، أبدت رفضها للدخول في أحلاف عسكرية وبخاصة مع الغرب الاستعماري . وأعلن "جمال عبد الناصر" رفضه لدعوة "نوري السعيد" رئيس الوزراء العراقي في الانضمام إلي حلف بغداد الذي كان بإيحاء من الغرب ، كما رفض عرضاً آخر لمشروع حلف إسلامي طرحه الملك السعودي "فيصل بن عبد العزيز" رأي الغرب في طرحه تواؤما مع توجهات شعوب المنطقة .

ولم يقف الأمر في الوقوف أمام إصرار الغرب علي ربط المنطقة به للحفاظ علي نجاح استرٰتيجيته بل تعداه إلي ميل الدول القومية في الشرق الأوسط ، وبفعل بعض التطورات السياسية فيها والتي تشير في جانب منها إلي عدم قراءة أبعاد اللعبة جيدا ، للاتحاد السوفييتي مما أثار القوي الغربية واتجاهها إلي فرض استرٰتيجيتها بالقوة إذا لزم الأمر.

ونتج عن هذه التطورات أن اتخذ الغرب سياسة ذي شقين تمثل الشق الأول في الدعم المطلق للدولة الصهيونية الناشئة والعمل علي تقويتها وجعلها هي الحلقة المكملة لاسترٰتيجيتهم والحارسة لها، والشق الثاني هو العمل علي تقويض القوي الإقليمية المعارضة والتي تسير في المنحى السوفييتي وتوجيه ضربات عسكرية لها من خلال الدولة العبرية كما حدث في عدوان ١٩٥٦ م علي مصر ثم الضربة العسكرية لمصر وسوريا والأردن ١٩٦٧ م التي قوضت دورهم السياسي إلي حد كبير ومؤثر.

وضمن الغرب من خلال الدور الإسرائيلي وإضعاف القوي العربية المعارضة نجاحاً لاسترٰتيجية الأحلاف العسكرية ، كما ركّز علي الدول المتاخمة للسوفييت جغرافيا في ضمان نجاح هذه السياسة مثل تركيا وإيران التي كانت من أهم ركائز هذه السياسة .

وازدادت أهمية إيران باعتبارها محوراً رئيسياً في هذه الاستراتيجية الغربية، وبنفس القدر كانت محوراً هاماً للسياسة السوفييتية التي ترتكز استراتيجيتها علي نظرية قلب الأرض من جهة وتريد مقاومة السياسة الغربية الساعية إلي خنقها من جهة أخري. بل إن أحد العلماء من تلاميذ "ماكيندر" وهو "دوجين" الذي كان يعمل مستشاراً لمجلس الدوما السوفييتي قد ذهب إلي حد دفع الساسة في بلاده إلي السيطرة علي إيران، لكن الظروف الدولية التي صاحبت شدة الاعتماد علي النفط في الخليج العربي وما يحيطها من حرص غربي علي هذه المنطقة الحيوية للاقتصاد الغربي برمته، قد وضعت احتمالات كبيرة في أن يؤدي مثل هذا العمل إلي قيام حرب طاحنة جديدة إذا أقدم السوفييت علي ذلك.

وكانت إيران من قبل مسرحا لصدام أوربي تتزعمه بريطانيا ضد روسيا القيصرية كما هو شأن أفغانستان إبان الحقبة الاستعمارية حيث وقفت بريطانيا أمام تحقيق حلم القياصرة في الوصول إلي المياه الدافئة حتى لا تتقاسم معهم أو تزحمهم في السبق الاستعماري، وبعد اعتلاء الأمريكيين للساحة السياسية الغربية وظهور النفط أصبحت هذه السياسة أكثر حدة في إمكانية حدوث صدام عالمي.

وشكّلت هذه السياسة اتفاقاً أو توافقاً إيرانياً غربياً منذ مطلع العصور الحديثة، واستمرت بشكل أقوي وفق هذا التطور الاستراتيجي بحيث أصبحت إيران، المتاخمة جغرافيا للسوفييت، تمثل قلب اهتمام الغرب، وأمريكا علي وجه الخصوص وبالشكل الذي وفّر لها الحماية من غزو سوفييتي أو حتى أمريكي.

وحين اتبع السوفييت وسيلة الغزو الأيديولوجي لإيران من خلال دعم التيارات والأحزاب الشيوعية داخلها مثل حزب تودا، ودعم الثورات المحلية المرتبطة بهذا الفكر مثل ثورة رشيد الكيلاني إبان الحرب العالمية الثانية، سارع الأمريكيون ومعهم الغرب الأوربي

لإجهاض هذه الثورة وتقويض الفكر الشيوعي حتى ولو كان من خلال وسيلة لا تتوافق مع توجّهاتهم والتي تمثلت في دعمهم للتيار الديني فأيدوا آية الله كاشاني ومعه مجموعة من الآيات الشيعية في ضرب التيار الشيوعي الذي كان يخشى من أنه في حالة نموه وتمكنه أن يسمح للنفوذ السوفييتي بالسيطرة علي إيران دون حرب معلنة والاقترَب بالتالي من منطقة النفط الاستراتيجية في الخليج العربي.

ثم دعم الغرب نظام الشاه حيث أمده الأمريكيون بترسانة عسكرية جعلت منه الشرطي الأقوى في حماية المصالح الأمريكية في المنطقة ، لكنهم تراجعوا عن سياستهم المؤيدة له رغم كونه من أقوي حلفائهم حين ترهّل نظامه بفعل الحركات والعوامل الداخلية وازدياد القوي الدينية واليسارية علي السواء ، فعاودوا اللجوء إلي دعم التيار الديني ، ولهذا كان دعمهم واحتواؤهم لآية الله الخميني الذي استقر في النجف ثم في باريس فترة الإعداد للثورة ، ثم مساعدته علي العودة إلي إيران .

لكن اتجاه الخميني وثورته وسعيه لدور إسلامي وإقليمي من خلال فكرة تصدير الثورة، وخروجه علي النص الأمريكي والأوربي الذي كان وراء مساعدته وإن لم يكن بشكل كامل، إلي جانب عوامل أخري كانهيار الاتحاد السوفييتي وانفراد الأمريكيين بالقطبية الأحادية واقترَب الخميني من منطقة النفط الاستراتيجية، كل ذلك دعا الأمريكيين الجدد بزعامة جورج بوش الصغير لإعادة النظر في استراتيجية التحالف الدائمة مع إيران وطرح رؤى جديدة بين الاحتواء أو القمع .

ويلعب موقع إيران الجغرافي وما تنتجه من النفط والغاز الطبيعي دوراً بارزاً في تحديد أبعاد السياسة الأمريكية تجاهها ، فإيران لا تطل علي الخليج العربي فقط ، وهو الموقع الذي تنحصر أغلب ثرواتها النفطية عليه ، بل تطل كذلك علي دول الاتحاد السوفييتي

السابق المطلة علي بحر قزوين التي تمتلك ثروة نفطية مؤثرة ، كما أن هذه الدول تدين بالإسلام السني والشيعي القريب من المذهب الإثنا عشري السائد في إيران ، وإيران كذلك قريبة من الصين التي تحاول أن تلعب دوراً فاعلاً في لعبة التوازن الدولي في المستقبل المنظور وكذلك روسيا التي تحاول استعادة قدر من دور الاتحاد السوفييتي وتداعب الدور الأمريكي علي الساحة الإيرانية ولن تترك لهم الانفراد بإيران المتاخمة لحدودها وهذا يسهم في تحديد طبيعة كل من الدور الأمريكي والروسي تجاه إيران ، ولعل هذا الأمر قد بدا واضحا بعد أزمة جورجيا حيث رد الروس بشكل حاد علي محاولات أمريكا والغرب لجعل جورجيا شوكة في قلب النفوذ الروسي وبدا من خلال ذلك أن أنياب الليث الروسي لا تشير إلي أنه يبتسم .

الثورة الإيرانية وأبعادها الإقليمية والدولية

علي الرغم من أن إيران كانت وما زالت ـ كما سبق التوضيح ـ تشكّل محوراً هاماً في السياسة الأمريكية إلا أن مصالح الولايات المتحدة قد دعتها لأن تلعب دوراً مؤثراً في الإطاحة بنظام الشاه الموالي لها وتساعد في نجاح الثورة الدينية التي تزعمها الخميني .

علي أن الأوضاع الداخلية في إيران قد لعبت دوراً أساسياً في ذلك حيث تراكمت العوامل السلبية في الداخل الإيراني من فقد الحريات وتسلط جهاز الاستخبارات (السافاك) ومن اعتقالات وسجن وتعذيب وقهر لأي ملامح للتمرد أو الثورة أو حتى التعبير عن الرأي . كما كان الوضع الاقتصادي في إيران ينذر بكارثة رغم عائدات النفط الكبيرة، فسادت الأمية وانعدمت الرعاية الصحية في وقت كثر فيه الإنفاق علي شراء السلاح وعلي العناصر العسكرية حيث بلغ تعداد جيش الشاه ما يزيد علي أربعمائة ألف، إلي جانب أعضاء السافاك الذين زادوا علي المائة ألف، كل هذا مع ازدياد للبطالة وسط أخبار زاد انتشارها بين الشعب عن تلاعب الشاه بأموال البلاد ونهب الكثير منها .

أما الأمريكيون فقد كان لهم نصيب في هذا التردي الذي أودي بحكم الشاه حيث أحاطوا الشاه بمستشارين بلغ عددهم حوالي خمسين ألفاً كانت حصتهم أربعة مليارات دولار سنوياً دون أي نصح إيجابي في القضايا والمشكلات الداخلية. كما أن الحزب الجمهوري في داخل أمريكا كان ينال حصة مالية من الشاه لدعم الانتخابات الرئاسية أو حتى البرلمانية وهو أمر زجّ بالشاه في لعبة التنافس السياسي داخل الولايات المتحدة .

فحين تولي "جيمي كارتر" رئاسة أمريكا وهو من الحزب الديمقراطي ، وكان علي علم بما أنفقه الشاه لدعم خصومه في الحزب الجمهوري ، أعرب عن إحساسه بالمرارة لتدخل شاه إيران في لعبة الانتخابات الأمريكية . ولم يكن هذا العامل وحده هو السبب في

توقف دعمه لنظام الشاه بل كانت وعوده خلال الحملة الانتخابية في أنه لن يتخذ سياسة من شأنها دعم النظم الاستبدادية ، ولهذا وجّه الكثير من النصح للشاه بشأن منح مزيد من الحرية للشعب الإيراني ووقف أساليب القهر والاستبداد . وبرغم حرص الرئيس الأمريكي علي المصلحة العليا لبلاده في الارتباط بإيران إلا أنه كان أقرب لفكر وتوجهات حزبه ووعوده الانتخابية فأصر علي مطالبة الشاه بمنح المزيد من الحريات ، وأدرك الكثيرون من أبناء الشعب الإيراني أن الحليف الأمريكي القوي لنظام الشاه لم يعد بنفس القوة في مساندته .

وكان انصياع الشاه لنصيحة الرئيس الأمريكي واتباع سياسة انفتاح سياسي أمام فئات اجتماعية عانت طويلاً من القهر، ودون ربط هذا القدر من الانفتاح بخطوات إصلاحية في الميدان الاجتماعي والسياسي وانحصاره في مجرد التبعية للنظام الأمريكي، كان ذلك من الأخطاء الفادحة التي أودت بنظام الشاه .

ومع ذلك لم يكن اتجاه السياسة الأمريكية أو توجيهات الرئيس الأمريكي تقصد في البداية الإطاحة بنظام الشاه لارتباط ذلك بالاستراتيجية السياسية الأمريكية في الشرق الأوسط، ولم يزد الأمر من قبل أمريكا عن كونه سعياً لتلوين وجهها أمام شعبها وشعوب العالم وذلك لأن مصالحها تفوق كل ما يعتبرونه مبادئ فالمسألة لا تعدو أن تكون بروباجندا فسارع الرئيس كارتر بقبول دعوة الشاه لزيارة إيران، ووصف إيران في ظل نظام الشاه بأنها جزيرة الاستقرار، وكثرت تصريحات البيت الأبيض حول مساندة أمريكا للنظام الإيراني.

لكن الأمريكيين كانوا قد بدأوا في تغيير سياستهم تجاه الشاه أمام استمرار الاضطرابات الشعبية والضغوط التي أحاطت بنظام الشاه ، وأدركوا أن الشاه أصبح غير مقبول شعبياً وأن الاعتماد عليه كركيزة لسياستهم في المنطقة كما كان لم يعد أمراً مقبولاً

بل مثيراً للقلق ، وأن الأجدى هو الاتصال بالقوي الدينية الممثلة في الخميني الذي أصبح يمثل أملاً ثورياً قوياً للشعب الإيراني .

ورأي الأمريكيون أن تولي سلطة دينية مقاليد الحكم في إيران سيسهم في تقليص نفوذ حزب تودا الشيوعي الإيراني ويحد من غلو التيارات القومية واليسارية الذي قد يشكّل عائقا لمستقبل السياسة الأمريكية في إيران والمنطقة علي حساب تقارب مع السوفييت يؤدي إلي زيادة نفوذهم . ولهذا سعى الأمريكيون للاتصال بآية الله الخميني في باريس في محاولة للوصول معه إلي ما يضمن الحفاظ علي مصالحهم التي يفضلونها علي أي نظام أو قيم ومبادئ مهما كان تحالفهم معه .

وكان أسلوب حكم الشاه قد أسهم في زيادة شعبية الخميني وازدياد حجم التأييد له رغم وجوده خارج إيران وذلك لسعي الشاه لدي السلطات العراقية لطرد الخميني من النجف، ثم سعيه لدي السلطات الفرنسية لطرده من فرنسا . وحين أدرك الأمريكيون ازدياد شعبية الرجل بشكل جارف قامت مخابراتهم بإجراء اتصال معه والرهان عليه بعد أن رصدت نسبة تأييده داخل إيران والتي فاقت كل التوقعات حيث بلغت ١٠ في المائة من سكان إيران وهو ما لم تبلغه أكبر الثورات في التاريخ كالثورة الفرنسية أو الثورة الأمريكية أو الثورة الروسية التي لم يتخط حجم التأييد لأي منها علي ١ في المائة من مجموع السكان .

كما لعبت السمات الشخصية التي تحلّي بها الخميني دوراً واضحاً في زيادة شعبيته فعلاوة علي كونه فقيهاً وعالماً وخطيباً فإنه تخطي المؤثرات العرقية والمذهبية وخاطب المسلمين جميعاً متخطياً كل خلاف أو صراع مذهبي وهو الأمر الذي يرجعه البعض في جانب منه إلي تأثير زوجته التي ترجع إلي أصل عربي فهي شيعية من الطائف، وكذلك رؤيته لتحالف إسلامي ضد القوي الغربية يعلو فوق الصراع المذهبي.

ولم تثر الثورة الإيرانية حفيظة الأمريكيين في البداية حيث ضم النظام الثوري عناصر من الإيرانيين من حاملي الجنسية الأمريكية مثل "إبراهيم اليزدي" الذي أصبح نائبا لرئيس الوزراء، وهو الذي تولي الاتصال بين الأمريكيين والخميني في النجف قبل نفي الخميني إلي باريس ، إلي جانب "رمزي كلارك" الذي كان وزيراً للعدل في الحكومة الأمريكية ، إلي جانب "أمير انتظام" الذي أصبح وزيراً للدولة في حكومة الثورة والناطق الرسمي باسمها ، و"جمران" الذي تولي وزارة الدفاع .

وعلي الرغم من أن الخميني قد أشار في خطبه في مناسبات عديدة أن الأمريكيين هم أهم أسباب ما وقع لإيران من البلاء والهوان إلا أن أركان نظامه مثل "بازركان" و"بهشتي" و"رافسنجاني" قد أكدوا استمرار اتصالهم بالأمريكيين بأمر وعلم من الخميني نفسه. كما أن حكومة الثورة بزعامة الخميني لم تقدم علي إلغاء المعاهدات التي كانت تربط بين إيران وأمريكا في أي جانب كالتسليح أو البترول أو التجارة ، ولم تقدم هذه الحكومة أدلة مقنعة للشعب سواء حول هذه المعاهدات أو لاستمرار وجود إيرانيين يحملون الجنسية الأمريكية ويشاع أمر ارتباطهم بجهاز المخابرات الأمريكي ويتولون مواقع مؤثرة في السلطة السياسية ، وربما كانت نشوة الثورة وانتظار الشعب ليلمس نتاج سياستها كانت من الأمور التي جعلت العلاقة مع أمريكا من أولوياته السياسية .

أما عن صدي الثورة الإيرانية علي الصعيد الإقليمي والعربي منه علي وجه الخصوص فقد كانت بمثابة إعلان علي قدرة التيار الديني معتمداً علي القوي الشعبية ، لا العسكرية ، للوصول إلي السلطة السياسية حتى في البلدان التي تنعم بالمساندة الأمريكية ، وهو أمر ساعد بالتالي علي تحفيز حركات التحرر الضعيفة والدينية منها بشكل خاص .

وكان المد القومي العربي قد تعرّض لانكسار في أعقاب هزيمة١٩٦٧م أدي به إلي عقد أول اتفاق بين مصر والكيان الصهيوني اعتبره البعض تكبيلاً جغرافياً وسياسياً لدور مصر العربي . واعتبر كثير من القوميين العرب أن الشعار الذي رفعته الثورة الإيرانية حول تصدير الثورة والعداء لأمريكا وإسرائيل وتحرير القدس كان بمثابة إعلان عن تردي المد القومي العربي .

وأسهمت هذه الأحداث في إثارة قلق دول الخليج العربي التي كان بعضها يرتبط نسبيا بنظام الشاه باعتباره كان موكّلاً من قبل الأمريكيين لحماية أمن المنطقة وإلي جانبه السعودية ومصر، فكان من أسباب ذلك القلق تراجع الدور العربي لمصر وضياع نظام الشاه ، ولم يبق سوي التمحور حول الدور السعودي للحفاظ علي أمن الخليج أمام التطورات الجديدة .

لكن العديد من الأسباب والتطورات قد وضعت النظام السعودي في قلق مماثل أسهم في زيادة القلق علي أمن الخليج ، فالنظام المصري أفرغ معاهدة كامب ديفيد من أي حماية للقدس من الأطماع اليهودية ، وبقدر ما كان ذلك يلقي علي السعوديين التبعة في كون نظامها السياسي يقوم علي حماية المقدسات الإسلامية ، فإن الثورة الإيرانية بإعلانها العداء لأمريكا وإسرائيل ، وهو ما لا تستطيع السعودية الإعلان عنه ، وأن من أولوياتها تحرير القدس ، قد أدي إلي إحراج النظام السعودي تجاه التزاماته الدينية الإسلامية إلي جانب أمن الخليج .

وجاءت أحداث الحرم التي قام بها جهيمان العتيبى ومحمد بن عبد الله القحطاني وبعض المؤيدين الذين اعتبروا القحطاني المهدي المنتظر لتزيد من إحراج النظام السعودي لكون فكرة المهدي المنتظر فكرة شيعية أكثر منها سنية مما دعا البعض لاعتبارها

أثراً مباشراً من آثار الثورة الإسلامية الإيرانية ، وتحقيقا لما أعلنه قادتها من فكرة تصدير الثورة وبالشكل الذي يحمل في طياته تحولاً للزعامة الإسلامية إلي الجناح الشيعي . كما أن هذا الحدث كان تعبيراً عن اهتزاز النظام الأمني السعودي في الداخل بعد أن كان المنتظر منه خليجيا حماية أمن الخليج أمام النزعات الشيعية التي أعقبت الثورة الإيرانية .

وأمام التراخي النسبي في الموقف الأمريكي في الإسراع لطمأنة دول الخليج علي أمنها ، والتحسب لأي دور سوفييتي قد يتسبب في الصدام مع الأمريكيين في الخليج وبسببه اتجه قادة الخليج إلي اتخاذ سياسة ترتكز علي محورين أولهما محاولة الاتصال بقادة إيران الجدد والثاني هو محاولة اتباع سياسة تجمعهم للحفاظ علي أمن منطقتهم .

وبدأ الخليجيون في الاتجاه نحو إيران بزيارة وزير خارجية الكويت "صباح الأحمد الصباح" . الذي يتولى منصب أمير الكويت الآن . ، لكن الظروف لم تمكنه من محاورة زعيم الثورة الخميني ولا حتى أركان نظامه ، فعاد دون أن يحقق أي هدف كان يقصده من الزيارة .

وتقابل وزير خارجية البحرين مع "إبراهيم يزدي" في نيويورك وناقش معه إمكانية الحوار مع النظام الإيراني وكذلك السعي لأن يوقف النظام الإيراني هجومه علي الدول الخليجية ووصفهم بأنهم كانوا عملاء للشاه وعملاء للأمريكيين علاوة علي اضطهادهم للأقلية الشيعية في بلادهم وبيعهم للخمور وغير ذلك . ومع أن هذا الحوار قد نجح نسبيا في توضيح موقف البحرين ومن خلفها دول الخليج للوزير الإيراني إلا أن ترك هذا الوزير لمنصبه قد قلّل من إمكانية نقل وجهة نظر الوزير البحريني إلي حكومة الثورة الإسلامية في طهران أو زعيمها الروحي في قم ، وترسّخ هذا البعد السلبي من خلال عدم اكتراث قادة الثورة بزيارة بعض الساسة الخليجيين الآخرين بما فيهم ولي العهد السعودي.

وبدت ملامح المحور الثاني، الذي أصبح أكثر إلحاحاً أمام ضعف المحور الأول ، من خلال التفكير في إنشاء اتحاد يضم دول الخليج العربي خلف السعودية حيث اجتمع الساسة الخليجيون في قاعدة عسكرية في جنوب غرب السعودية في خميس مشيط واتفقوا علي توحيد سياستهم الخارجية والبترولية ، وقرروا دعوة العراق لمشاركتهم ، لا الانضمام إليهم ، ليشارك السعودية في أمن الخليج العربي .

وأبدي العراق تجاوباً مع هذا الاتجاه بعد أن أدرك أهمية أن يكون له دور في الخليج تمليه الظروف السياسية وكذلك الوجود الشيعي الذي أصبح يحاصره أو يحيطه بعد الثورة الإيرانية ، وأدرك فائدة هذه السياسة فور قيام الحرب بينه وبين إيران والتي استمرت لمدة ثماني سنوات .

أما عن أثر الثورة الإيرانية في مصر فقد أثارت قلقاً شديداً لدي الرئيس السادات سواء لكونها قد أثبتت موقف أمريكا المتخاذل مع واحد من أهم حلفائها في الشرق الأوسط وهو صديقه الشاه ، وأن ذلك سيضعف من الخط الذي اختطه لسياسته الخارجية قبل وبعد كامب ديفيد ، أم لأن هذه الثورة ستسهم في حدوث مزيد من الإثارة للتيار الإسلامي المعارض له داخل مصر. لذلك سارع السادات بإعلان هجومه علي هذه الثورة، وأوحي إلي وسائل إعلامه بإبراز قيام قادة هذه الثورة بإعدام الآلاف من أبناء الشعب الإيراني ، وحاول من خلال ذلك تجريدها من طابعها الإسلامي في أن الإسلام لا يدعو إلي هذه المجازر.

كما أعلن السادات عن استقبال بلاده للشاه المطرود مذكراً ببعض المواقف الطيبة له في علاقته مع مصر ، وأن الأمر يقتضي رد الجميل ، وأن التنكر لهذه المواقف إنما هو تنكر لأبسط مبادئ الأخلاق . كما أظهر عناية شديدة . ربما بوحي أمريكي كما أشار البعض . بمعالجة الشاه من مرضه قبل وفاته ، وأحاط جنازته بموقف رسمي في الغالب ،

وشعبي نسبي ، وهي أمور كانت تحدد بوضوح موقفه من الثورة الإسلامية الإيرانية من جانب ومن التقارب مع الأمريكيين من جانب آخر.

أما عن موقف بعض أتباع التيار الإسلامي في مصر من هذه الثورة والذي كان يحظى بتأييد شعبي فقد أعلن تأييده للثورة ، وكان يري أنه بغض النظر عن الخلاف المذهبي بين الشيعة والسنة كانت الثورة الإيرانية تعني لهم إمكانية وصولهم إلي الحكم وإبعاد النظام العسكري مهما كان ينعم بتأييد من الجيش أو متقارب مع الأمريكيين علي غرار ما حدث للشاه ، وأدي ذلك إلي اتجاههم إلي القوي الشعبية بعد أن أغلق النظام السياسي أمامهم القنوات الشرعية للعمل السياسي العام .

وتبع ذلك إقدام أتباع التيار الإسلامي علي التوسع في بناء المساجد، وعدم قصر مهمة المساجد علي الوعظ والإرشاد والخطابة بل أصبحت مكاناً تتجمع فيه العديد من الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية مما أسهم في زيادة شعبيتهم .

وبادر أتباع التيار الإسلامي بالقيام بالعديد من المظاهرات في عدة مدن احتجاجا علي زيارة الشاه لمصر ، وأعلنوا خلال هذه المظاهرات عن تأييدهم للثورة الإسلامية في إيران ورفعوا صوراً للزعيم الروحي للثورة آية الله الخميني بشكل أثار القلق لا في مصر فقط بل في المحيط العربي الإسلامي .

ونشرت جماعة الإخوان المسلمين منشورات أيدت فيها الثورة الإيرانية واعتبرتها انتصاراً للمد الإسلامي ، وأرسلوا وفداً منهم إلي طهران لتقديم التهنئة لزعيم الثورة ، واستقبل الوفد باهتمام فاق نظيره من السياسيين العرب . كما دعت الجماعة من خلال صحفها إلي ضرورة تعاطف الجماهير في كل العالم الإسلامي مع الثورة ، وشاركتها جماعة الجهاد في هذا الاتجاه .

وقد أثار موقف التيار الإسلامي في مصر والمؤيد في أغلبه للثورة الإيرانية حفيظة السعوديين حيث استشعروا منه خطراً قد يدعم تيار الخميني في فكرة تصدير الثورة ، علاوة علي إمكانية تأثيره في الداخل السعودي الذي يحتضن عناصر من جماعة الإخوان علاوة علي الأقلية الشيعية ، ورأت أن نجاح هذا التيار في مصر قد يضعهم في موقف متأخر في العالم الإسلامي إلي جانب كونه يمثل حصاراً جغرافياً لهم علي الساحة الإسلامية بين إيران شرقاً ومصر غرباً .

ولم يكن موقف السعوديين السياسي من نظام السادات بعد كامب ديفيد يسمح لهم بالتنسيق معه لمواجهة هذا المد المؤيد للثورة الإيرانية في مصر أو خارجها ، وأدركوا أنه لا بد من العمل علي إيجاد قنوات بديلة لمقاومة هذا التيار والسعي لتحجيمه داخل مصر ، وهو أمر كانوا يدركون أن نظام السادات لن يعارضه حتى في غياب القنوات الرسمية أو المعلنة للاتصال بين البلدين .

واتبع السعوديون العديد من الخطوات التي رأوها كفيلة بتحقيق قدر من أهدافهم تمثلت في استخدام كوادر من جماعة الإخوان المسلمين من المصريين الذين كانوا يقيمون في المملكة منذ هروبهم من نظام عبد الناصر مثل الشيخ مناع القطان والدكتور توفيق الشاوي والدكتور أحمد العسال وغيرهم بقصد التأثير علي موقف الجماعة في مصر . كما فتح السعوديون جامعاتهم بشكل متزايد لعمل العديد من أساتذة الجامعات المصريين لاستخدامهم بشكل مباشر أو غير مباشر في دعم التيار السلفي وكسب ولائهم ضد التيار المؤيد للثورة الإيرانية .

كما انتهج السعوديون أسلوباً آخر تمثل في السعي لإنشاء بعض دور النشر في مصر واستكتاب العديد من الكوادر العلمية والفكرية في إظهار أبعاد الصراع المذهبي الشيعي

وعدائه لأهل السنة ، وأوكلوا هذه المهمة لبعض كوادرهم الجامعية الواعية مثل الدكتور عبد الله التركي الذي استعان بدوره ببعض الكوادر من المصريين التابعين الذين خضعوا لتأثير المال أكثر من قناعتهم الفكرية .

واستكمل السعوديون دورهم في مصر بإقامة العديد من اللقاءات والندوات الفكرية والثقافية التي تخدم هذا الاتجاه سواء بقصد دعم العلاقات المصرية السعودية الذي انعقد له أكثر من لقاء في الجامعات المصرية أم من خلال بعض الصحف ذات التأثير الفكري علي الشباب المصري .

وأسفر التوجه السعودي ، الذي التقي مع التوجه الحكومي المصري ، عن ضعف تعاطف الجماعات الإسلامية المصرية مع الثورة الإيرانية سواء من خلال وسائل الإعلام أم من خلال تعاطف الشارع المصري مع العراق في حربها مع إيران ، وكذلك من خلال ملامح الشك التي أثارتها هذه الحرب وما صاحبها من صفقات السلاح التي عقدها زعماء الثورة الإيرانية مع إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية . كما أن جماعة الإخوان المسلمين قد ازداد تأثرها وتغير موقفها من ثورة الخميني حين أيّدت هذه الثورة النظام السوري في ضرب جماعة الإخوان المسلمين في سوريا ، إلي جانب نجاح التوجه السعودي في استقطاب بعض أعضائها المؤثرين في توجهها.

أما عن الأثر الذي نتج عن الثورة الإيرانية علي الساحة السوفييتية فقد كان السوفييت يخشون فكرة تصدير الثورة علي الأوضاع في الأقاليم الجنوبية منهم والمتاخمة لحدود إيران الشمالية علي الرغم من ارتياحهم لمنحي الثورة بعيدا عن الأمريكيين . وكان السوفييت يدركون أن هذه الأقاليم ترتبط في جزء كبير منها بروابط عرقية مع الإيرانيين حتى ولو لم تكن مذهبية ، كما أن النشاط الديني الذي وجد في هذه الأقاليم قد زاد عن ذي

قبل بفعل تأثير الثورة الإيرانية . وكان من عوامل قلقهم أن نسبة الزيادة السكانية في الأقاليم الإسلامية يفوق النسبة المقابلة في غير المسلمين داخل الولايات السوفييتية الأخرى مما سيكون له تأثيره المستقبلي .

والأثر الأهم الذي أزعج السوفييت تجاه الثورة الإيرانية هو حدوث تحول نسبي في ولاءات الأقاليم الإسلامية داخل الاتحاد ، فبعد أن كانت الشيوعية تسهم في حل أية أزمات داخلية أصبح الاتجاه نحو الجنوب الإسلامي أكثر من الارتباط بالمواطنين الشيوعيين في الشمال .

ومن جانب آخر انتهز السوفييت فرصة انشغال إيران بالثورة وانشغال المسلمين والأمريكيين بها فأقدموا علي احتلال أفغانستان السنية في وقت كان فيه الجناح السني في وضع لا يمكنهم من اتخاذ موقف تجاه هذا الغزو ، ونقل السوفييت بينهم وبين الأمريكيين المنشغلين بأحداث ثورة إيران وتداعياتها حول منطقة الخليج ، ومعهم العرب السنة ، إلي الساحة الأفغانية . وأدرك العرب السنة أن هذا الميدان قد يسهم في اعتلائهم للمد الإسلامي المناوئ للاستعمار، وأسفر عن تكوين تنظيم القاعدة من مجموعات المجاهدين الذين صارعوا السوفييت حتى نجحوا في إجلائهم عن أفغانستان وبمعاونة أمريكية.

أما عن أثر هذه الثورة علي الصين واليابان فلم يزد عن كونه قلقا علي أوضاع النفط في الخليج وإمكانية تصاعد الموقف الذي قد يؤدي إلي غلائه أو توقفه وما يمكن أن يؤدي إليه ذلك من تأثير اقتصادي . ولذلك لم يبد الصينيون أو اليابانيون موقفاً محدداً من الثورة الإيرانية ، في حين وقف الأوربيون خلف الموقف الأمريكي في السعي لتأمين منابع النفط في الخليج.

الحرب العراقية الإيرانية وعلو التيار القومي علي حساب التيار الإسلامي

لاشك أن الأمريكيين قد لعبوا دوراً بارزاً في دفع العراق وإيران إلي صدام عسكري استمر لمدة ثماني سنوات، فقد ضاق الأمريكيون بالثورة الإيرانية وطرد الشاه الذي كان يمثل عامل استقرار لمصالحهم في المنطقة . ثم جاءت حادثة قيام مجموعة من الطلاب الإيرانيين المدفوعين بالمد الثوري الجديد باحتجاز موظفي السفارة الأمريكية في طهران واعتبارهم رهائن وهو الأمر الذي دعا الأمريكيين، مع عوامل أخري متراكمة ، في أن يعيدوا النظر في علاقتهم بالزعامة الإيرانية الجديدة وبخاصة بعد أن تعرضت هيبتهم للخطر أمام العالم من هؤلاء الطلاب وبالشكل الذي زاد من اهتزاز صورتهم أمام حلفائهم في المنطقة وبالتالي إمكانية تعرض مصالحهم للخطر.

سارع الأمريكيون بقطع علاقاتهم الدبلوماسية والاقتصادية مع طهران كرد فعل مباشر لهذه الأزمة ، لكن ذلك عطّل الكثير من القنوات التي كان من الممكن استخدامها بشأن حل هذه الأزمة وبخاصة بعد أن أشيع عن إمكانية قتل الرهائن .

وحقق الإيرانيون بعض الفائدة من هذه الأزمة حيث أظهروا مدي سوء عهد الشاه من خلال ارتباطه بالأمريكيين ، وكذلك مدي عجز الأمريكيين عن اتخاذ موقف تجاه حل الأزمة . لكن حكومة الثورة الإيرانية كانت تريد ، بعد إظهار ذلك ، أن تفرج عن الرهائن لإظهار مدي سماحة دعوتهم الإسلامية وعدم وجود مشاعر كره للشعوب وبخاصة الأمريكيين وأن القصد هو الحكومة الأمريكية ، إلي جانب أن الإيرانيين في حقيقة الأمر كانوا يخشون مواصلة استفزاز السياسيين الأمريكيين إلي المدى الذي قد يصل بالأمور إلي حد اتخاذ موقف لا تتحمله الحكومة الإيرانية . لكن هذه الأزمة قد تركت أثراً عكسياً حول إمكانية قبول أمريكا والغرب للتقارب مع حكومة الثورة الإيرانية .

وقبل أن تحل أزمة الرهائن الأمريكيين وقعت الحرب بين العراق وإيران مترجمة للعديد من التدابير الغربية وربما العربية وللعديد من التمنيات التي أحاطت مراحل التدبير تجاه مستقبل هذه الثورة . فالأمريكيون ، ومعهم الدول الغربية ، بعد أن دبّر سياسيوهم وأجهزة استخباراتهم دفع الجانبين إلي هذه الحرب سعوا إلي فرض أسلوب الصمت واللامبالاة علي المنظمات الدولية تجاهها فلم يكترث مجلس الأمن أو غيره في المنظمة الدولية بالحرب وما يرتكب فيها من مجازر علي الجانبين صورتها أجهزة الإعلام .

وانشغل السوفييت بدورهم في أفغانستان مع التعبير عن قدر من القلق حيال حلفائهم العراقيين وحيال فعاليات السلاح السوفييتي الذي يستخدمونه أمام السلاح الأمريكي الذي امتلأت به مخازن الشاه وورثته في الحكومة الإسلامية .

أما عن موقف الدول الخليجية تجاه هذه الحرب فقد راقها اشتعالها وعملت علي أن يطول أمدها حتى تسهم في تقليم أظافر الجانبين الإيراني والعراقي حول دورهما الإقليمي، وكانت الحرب تعني بالنسبة للسعودية ما جاء علي لسان ملكها خالد بن عبد العزيز تعليقاً علي أخبارها بالشعر العربي " وربما تموت الأفاعي من سموم العقارب " .

واكتفي الخليجيون بالمساعدات المالية الكبيرة للنظام العراقي، والتقوا مع الأمريكيين وحلفائهم الإسرائيليين بالسعي . لا بالتمني . لكي تطول هذه الحرب .

كان الأمريكيون أميل إلي مساعدة العراق في بداية الحرب وبخاصة مع استمرار أزمة احتجاز الرهائن في إيران ، كما كانوا يريدون استنفاذ المخزون الهائل من السلاح الذي خلّفه الشاه حتى تفقد الثورة ما يمكنها من أن تكون قوة إقليمية . كما توافق الأمريكيون مع إسرائيل في الرغبة في العمل علي طول الحرب بشكل يدفع الثورة في إيران للاعتماد علي عناصر الجيش النظامي السابق الموروث من عهد الشاه ، وأن ذلك قد يساعد

علي عودة الجيش للسيطرة علي الدولة وبخاصة العناصر التي يمكن لأمريكا وإسرائيل الاتصال بها في وقت يكون فيه الخميني الطاعن في السن قد مات وتعود الأمور في إيران إلي طبيعتها في الارتباط بالأمريكيين.

وكانت المعلومات تصل إلي السعوديين عن مسار الحرب وعن طرفيها من الطائرات التجسسية الأمريكية الأواكس ، وحين أرادت السعودية شراء بعض من هذه الطائرات اشترط الأمريكيون أن يقودها طيارون منهم لمدة عشر سنوات . ونقل السعوديون هذه المعلومات إلي الجانب العراقي إلي جانب إمداده بالمساعدات المالية. وفي نفس الوقت دأبت أجهزة استخباراتها علي تحليل تناقضات الداخل الإيراني المذهبية والعرقية إلي جانب أبعاد الأزمات الاقتصادية والسياسية التي خلفتها هذه الحرب . وكان ذلك يشير في جانب منه إلي استخدام الأمريكيين للسعودية كقناة لتوصيل ما تريده من معلومات إلي العراق ولكن وفق موافقة سعودية تحاول من جانبها تشكيل محور عربي سني أمام النمو المتزايد لمد الثورة الإيرانية الشيعية .

ومع أن إسرائيل ، متفقة مع الأمريكيين ، لم تكن تريد لإيران أن تتحول إلي قوة دينية إقليمية قد تصبح زعيمة للعالم الإسلامي وتشكّل خطراً علي تطلعاتها الإقليمية إلا أنها - أي إسرائيل - في نفس الوقت لم ترد أن تصبح العراق دولة قومية قوية تعادي مصالحها الإقليمية في المنطقة عامة وفي الخليج علي وجه الخصوص ، كما أن مثل هذا الأمر قد يستفيد منه السوفييت . ولهذا سارعت إسرائيل بإرسال شحنات أسلحة إلي إيران منذ الشهور الأولي للحرب حتى قبل أن ينجح الرئيس العراقي صدام حسين في تحقيق تقدم في شهور الحرب الأولي.

فقد تمت الصفقة الأولي في مارس ١٩٨١ م أي بعد أشهر قليلة من بداية الحرب توسط فيها "الشيخ صادق طبطبائي" الذي كانت له صلات ببعض عملاء الاستخبارات الإسرائيلية، ثم تلتها صفقات أخري عن طريق عملاء آخرين في لندن وغيرها .

ومن المؤكد أن الكشف عن هذه الصفقات وتناول وسائل الإعلام لها لم يكن أمراً عفوياً أو سبقاً إعلامياً وإنما كان أمراً مرتباً ومدروساً لإحداث أثر اتساع الفجوة بين طرفي الحرب والعمل علي إطالتها ، وكذلك تحجيم الأثر الذي أحدثته الثورة الشعبية الإيرانية في الشعوب الإسلامية وبخاصة لدي جماعات الإسلام السياسي في العالم العربي المعادية لإسرائيل .

أما الحادثة التي أسهمت في علنية العلاقة بين إيران وإسرائيل وطبيعة صفقات السلاح فجاءت علي أثر إسقاط وسائل الدفاع السوفييتية لطائرة أرجنتينية كانت محملة بالسلاح في طريقها إلي طهران ، فسارعت أجهزة الإعلام البريطانية بنشر تفاصيل الأمر حول قيام تاجر بريطاني هو "استويب ألن" بتسليم إيران ثلاث شحنات أسلحة خلال شهر يوليو ١٩٨١ م ، وكذلك وجود شحنات أخري عن طريق عملاء آخرين .

واضطر الرئيس الإيراني "أبو الحسن بني صدر" للاعتراف بعلمه بهذه الصفقات وبالعلاقات الإيرانية الإسرائيلية ، واضطر الزعيم الديني آية الله الخميني لأن يعزل وزير دفاعه "عمر فاخوري" لتغطية الموقف أمام شعبه وبقية الشعوب الإسلامية . كما اعترف بعض القادة الإسرائيليين مثل "مناحم بيجين" و"شارون" وأشاروا أن الغرض من هذه الصفقة هو السعي لإضعاف العراق إلي جانب الحصول علي احتياجات إسرائيل من النفط من إيران .

علي أن إسرائيل قد انتهجت هذه السياسة تجاه إيران بتأييد ودعم من الأمريكيين حيث أظهرت تقارير لمجلس الأمن القومي الأمريكي أن إسرائيل لها علاقة طويلة المدى مع إيران وأن توريد الأسلحة من إسرائيل إلي طهران يفيد صناعة السلاح فيها والذي يحتوي علي أسلحة تم شراؤها من الولايات المتحدة ، وأن مثل هذه السياسة تسهم في تقوية إيران علي حساب العراق العدو القديم لإسرائيل ، والأهم هو أن تولي إسرائيل لهذه المهمة يساهم في عدم تأزم العلاقات الأمريكية العربية . في حين كانت إسرائيل تريد من إعلان الموقف الأمريكي المساند لإيران إفساد العلاقات العربية الأمريكية كي تثبت مفهوم الشراكة الأمريكية الإسرائيلية الذي يفوق ارتباط أمريكا بأي طرف عربي في منطقة الشرق الأوسط .

وبعد أن أسهمت صفقات السلاح إلي إيران في ميل كفة الحرب إليها بعد أن كانت في صالح العراق اتجه العراق إلي تحريك مصانع السلاح فيه ، وكذلك الاستعانة بالمصانع المصرية التي سخّرت كل إنتاجها من السلاح للعراق بتمويل خليجي . إلي جانب قيام سماسرة من مصر ودول الخليج بشراء أسلحة من دول أوربا الغربية ، وكذلك اتفاق العراق ومصر علي إنتاج أسلحة مشتركة أهمها الصواريخ .

ومع ميل كفة الحرب إلي جانب العراق في أواخرها ، ونجاح العراق في صناعة بعض الأسلحة وتطوير صواريخ سكود ، أعلن الإيرانيون قبولهم غير المشروط لوقف القتال . وبدا أمام ذلك أن العراق قد حقق نصراً، لكن الأمر في حقيقته أن الحرب قد أضعفت قدرة الجانبين بحيث أصبح كل منهما مهزوماً .

لكن الأمر الأبرز في مراحل الحرب هو ما أحاط بالموقف الأمريكي في أزمة احتجاز الرهائن حيث أن هذه الأزمة التي حدثت في آخر ولاية جيمي كارتر قد استغلها

رونالد ريجان مرشح الحزب الجمهوري المنافس عن طريق نائبه جورج بوش الأب الذي طلب من إيران ألا تسارع في حل الأزمة وأن تعطّل الإفراج عن الرهائن كي يسهم ذلك في عدم نجاح المرشح الديمقراطي كارتر لولاية ثانية وأن يتيح ذلك الفرصة لنجاح رونالد ريجان في مقابل وعد من ريجان لحكومة الثورة الإسلامية بإمدادهم بالأسلحة .

علي أن قيام ريجان بعد نجاحه ومشاركته من خلال إسرائيل أو بشكل سري بإمداد إيران بالسلاح لم يربط ذلك بوعده حين المعركة الانتخابية وإنما ربطه بالمصالح الأمريكية العليا التي كانت تقتضي إمداد إيران بالسلاح وأنه كان استجابة لاستراتيجية دولته لا تلبية لوعد شخصي.

ومع أن التعاطف مع العراق قد أسهم في علو نسبي للتيار القومي العربي إلا أن تعاطف بعض الدول العربية مع إيران مثل النظام السوري ، وكذلك الشعارات التي رفعها النظام العراقي خلال الحرب واستخدام البعد الديني من زوية شعوبية كإطلاق إسم القادسية ونهاوند علي بعض المعارك قد أسهم في ضعف التيار الإسلامي وانقسامه إلي بعد مذهبي أكثر من إسهامه في علو التيار القومي .

ومن الأمور التي أسهمت في ذلك أيضا أن الثورة الإيرانية قد سعت لترسيخ البعد المذهبي الشيعي مع التيار القومي الفارسي وبخاصة بعد الحرب مع العراق، في حين كان الصدام بين الأنظمة القومية العربية والتيار الإسلامي السني قد أدي إلي ضعف التيارين معاً مما أتاح الفرصة لإيران أن تسعي لزعامة العالم الإسلامي أمام الدور الإسرائيلي والأطماع الأمريكية في العالمين العربي والإسلامي.

اهتزاز موقف العرب بعد احتلال العراق

علي الرغم من أن احتلال أمريكا للعراق قد صاحبته مباركة وتأييد من بعض القوي العربية، والخليجية منها علي وجه الخصوص والتي دفعتها أحداث احتلال العراق للكويت والتي تلاها تهديد للأمن الخليجي بدلا من المشاركة في صيانة هذا الأمن ، إلا أن بعض الأنظمة السياسية العربية ، وأغلب الشعوب العربية قد أعربت عن رفضها لهذا الاحتلال سواء من أتباع التيار القومي العربي أو من أتباع التيار الإسلامي .

ولعل ما ترتب علي هذا الاحتلال من تداعيات أسهمت في حدوث المزيد من الخلل الاجتماعي والسياسي لدي الكثير من الشعوب العربية ، وكان لذلك الخلل مردوده علي مواقف بعض الأنظمة السياسية اضطرتها إلي إعادة النظر في علاقاتها الداخلية والتوازنات الإقليمية والدولية .

ففي أعقاب الغزو الأمريكي للعراق وإسقاط نظام صدام حسين بدأ الأمريكيون يلوّحون بإمكانية استخدام القوة ضد سوريا في شبه رسالة منهم للقوى العربية الأخرى علي أن من يرفع رأسه سيلقي نفس المصير. وتابعتها إسرائيل باتباع لغة تهديد ضد القوي العربية حتى التي ترتبط معها بمعاهدات سلام كمصر دون أن تلقي أي لوم من الجانب الأمريكي .

وبدت علي الساحة العراقية جماعات للمقاومة ضد الاحتلال الأمريكي والتي ظن الأمريكيون أنهم سيطوقونها ويقضون عليها في غضون فترة وجيزة ، إلا أن بعض القوى العربية في سوريا ، ومعها إيران رغم استفادتها من سقوط نظام صدام حسين ، قد تلاقت علي سياسة مفادها أن استتباب الأمر للأمريكيين في العراق سيدعوهم لمواصلة خطتهم في فرض الهيمنة علي بقية دول المنطقة . فسارعت هذه الدول بدعم المقاومة في العراق، وفتحت

حدودها لكافة القوى والتيارات والجماعات الجهادية التي تجمع القوميين والإسلاميين لتصعيب المهمة علي الأمريكيين داخل العراق.

بل إن البعض قد أشار إلي عودة بعض القوى الإقليمية لدعم تنظيم القاعدة في أفغانستان والعراق حتى ينوب عنهم في مقاومة الأمريكيين في كلتا الجبهتين مما دعا الولايات المتحدة لاتخاذ مواقف صعبة مع حلفائها العرب وبخاصة السعودية تمثلت في تجميد الكثير من الأرصدة المالية لجمعيات وهيئات إسلامية لها دورها الاجتماعي والسياسي بحجة أنها تساند الجماعات الإرهابية .

ولم يقف أمر التناقض في الموقف العربي بين الرفض المعلن لحركات الجهاد والمقاومة وبين الدعم السري لها علي ساحات القتال مع أمريكا بل تبعه تناقض واختلاف آخر حيال الموقف من إيران والوقوع في فخ الصراع القومي (فارسي عربي) والمذهبي (شيعي وسني) حيث انقسم السياسيون والمفكرين بين تيارين وبالتالي تبعهم الشارع العربي بحيث أصبح من الصعب تحديد رؤية واضحة حيال العلاقات مع إيران الدولة وإيران المذهب .

وكان من عوامل حدوث هذا الانشقاق في الشارع العربي ذلك الصمود الإيراني المعلن أمام غطرسة الأمريكيين، والتحدي السافر للكيان الإسرائيلي الذي بلغ ذروته علي لسان الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد الذي طالب بمحو إسرائيل وإعادتها إلي بلدان أوربا وكذّب ادعاءاتها فيما يعرف بالهولوكست أو المحرقة النازية لليهود إبان الحرب العالمية الثانية ، فلم يستطع رئيس أو حتى زعيم ثوري عربي أن يصل إلي هذا البعد من التحدي حتى ولو كان من قبيل الدعاية والبروباجندة . وكذلك مواصلة الإيرانيين لدعم التيار الإسلامي في فلسطين المتمثل في حركة حماس بشكل فاق أسلوب الدعم العربي مما أسهم في إحراج العديد من الأنظمة السياسية العربية أمام شعوبها .

ثم جاء التحدي للموقف العربي فيما حققه حزب الله الشيعي من انتصار أجبرها علي الاعتراف بالهزيمة لأول مرة في تاريخها وهو ما لم تستطعه الدول العربية

مجتمعة أو فرادي حتى في حرب رمضان ١٩٧٣ م . فإلي جانب الحرج الذي أحاط بتاريخ الأنظمة السياسية العربية وبموقفها من حزب الله أثناء الحرب فإن ذلك قد أسهم في ترسيخ مزيد من القناعات لدي الشارع العربي بجدوى المقاومة أكثر من جدوى الأنظمة السياسية، وسواء مقاومة داخلية ضد هذه الأنظمة أو مقاومة ضد إسرائيل وأمريكا ، فازداد التأييد الشعبي لحركة حماس في فلسطين ، وللمقاومة العراقية ، بل ولتنظيم القاعدة ، وكذلك للجماعات الدينية داخل البلاد العربية كحركة الإخوان المسلمين في مصر والأردن وغيرها .

وبدأت العديد من المشكلات تسطو علي سطح الساحة العربية كمحاولة الأكراد إقامة حكم ذاتي أو مستقل عن العراق، فسعوا إلي تدعيم ميليشياتهم العسكرية (البشمرجة) وتحويلها إلي جيش نظامي مستعينين في ذلك بإسرائيل التي وجدت في الشمال العراقي الكردي موطناً سمح لها بالتدخل في تحديد مستقبل العراق .

ولعل أبرز ما وجد علي الساحة العربية السياسية والفكرية من انشقاق وتضاد أوجده احتلال الأمريكيين للعراق هو الاختلاف حول دور إيران بين العراق والأمريكيين، فهناك فريق مازال يصر علي وجود تنسيق بين طهران وواشنطن وصل إلي حد التحالف سواء قبل احتلال العراق أم بعده ، وأن المسألة المعلنة عن وجود صراع بينهما ليس سوى تغطية لنوايا تقسيم المنطقة العربية إلي مناطق نفوذ . في حين يري فريق آخر عكس ذلك في أن إيران دولة مسلمة وإن اختلفت في المذهب وأنها لو سقطت في يد الأمريكيين فإن العالم الإسلامي سنة وشيعة سيصبح مستباحا لأمريكا وإسرائيل لتنفيذ ما سبق أن خططوا له تجاه المنطقة.

وصوّر الفريق المشكك في أبعاد الدور الإيراني أن المفكرين العرب الذين يدافعون عن ضرورة تحسين العلاقات العربية الإيرانية خدعتهم إيران وينبغي أن يعودوا إلي رشدهم وينتبهوا إلي طبيعة الدور الإيراني الرامي إلي المشاركة في بسط نفوذه علي المنطقة، في حين

رآهم المعارضون بأنهم يسبحون في البحار الأمريكية الصهيونية أو يعملوا لحسابهم دون وعي - وربما بوعي - ودون أن يحسبوا لذلك حساباً.

فذهب البعض إلي القول بأن إيران قد نجحت في إيجاد فريق من المثقفين العرب بعضهم ينتمي إلي التيار القومي وبعضهم يميل إلي التنظير الفكري ولكنهم في مجموعهم يتخبطون بالشكل الذي سمح لهم بطرح المشروع الإيراني السياسي تحت الغطاء المذهبي أو الديني بشكل عام ، وذكر البعض أنه من العبثية أن يخترق المشروع الإيراني حركة القوميين العرب وقطاع من الإسلاميين تحت حجة الخوف من المشروع الأمريكي الصهيوني ، ورأي هذا الفريق ضرورة التنبه إلي التخطيط بين واشنطن وتل أبيب وطهران علي الكيانات السياسية العربية مذهبياً وسياسياً ، وبالتالي فإن الدفاع عن المشروع الإيراني هو دفاع عن المشروع الأمريكي دون أن ينتبه هؤلاء .

أما الفريق الآخر فنظر إلي إيران علي أنها دولة مسلمة ترتبط بروابط مع المسلمين أقوي من خلافات المذاهب، وأنها بسبب هذه الهوية، ولأسباب اقتصادية وجيوبولوتيكية تقع في دائرة التخطيط الأمريكي للهيمنة مثلها مثل بقية الدول العربية، وبالتالي فإن التقارب مع إيران قد يشكل عائقاً أمام المشروع الأمريكي الصهيوني، وأنه إذا كان العرب قد قبلوا التعامل مع إسرائيل وعقد بعضهم معها اتفاقيات سلام فإنه من الأولي أن يلتقي العرب مع الإيرانيين حتى لو كان بينهما عدم ثقة أو تنافس علي دور إقليمي، وأن الرهان علي تأثير الشعوب كالشعب الإيراني صانع الثورة فهو أشد تأثيرا وأقوى من الرهان علي أية حكومة من الممكن أن تتلاقي مع مخططات الغرب.

ومن أهم الآثار التي تركتها أبعاد احتلال العراق علي الساحة العربية كذلك الانهيار الواضح للمد القومي العربي الذي كان يمثل لفترة تاريخية أملا للتوحد والتضامن.

ووصل الأمر إلي الحد الذي وصفه البعض من الكتّاب بأنه - أي المد القومي العربي - لم يكن خياراً جماهيرياً عربياً بل خيارا لبعض النخب السياسية العربية التي حاولت تسويقه أو فرضه علي الجماهير العربية، وأن قبول الجماهير به قد خضع لمؤثر تاريخي لكونهم قد حكموا من قبل حكومات مركزية ذات صبغة إسلامية لفترة طويلة ، وكذلك لمؤثر ديني باعتبار أن التلاقي العربي كان يمثل لقطاع كبير من هذه الجماهير خطوة في طريق استعادة أمجاد دولتهم الإسلامية .

فقد كان سقوط صدام حسين يمثل سقوط واحدة من أهم أركان التيار القومي العربي بعد تصدع هذا التيار في أعقاب هزيمة أبرز رواده وهو جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٧م وازدياد تصدعه بموته في ١٩٧٠ م، ولم يبق علي الساحة من أتباع هذا التيار سوي النظام السوري الذي دعته الضرورات السياسية العربية والدولية إلي قبول تحالف أو الدخول في محور مع إيران ضد صدام حسين أو بعد سقوطه. كما أن الرئيس الليبي معمر القذافي الذي كان يحاول المشاركة في إحياء التيار القومي العربي بصيغته الناصرية والذي لم يكن مؤهلاً له بحكم اختلاف واختلال الظروف قد توجه بسياسته بعيداً عن هذا التيار بعد تصدعه إلي الساحة الإفريقية، فسعى لتكوين تكتلات وأحلاف إفريقية ، وأدار ظهره للقضايا العربية حتى وصل إلي حد الامتناع عن حضور الاجتماعات الشكلية التي تجمع القادة العرب سنوياً تحت مسمي مؤتمر القمة ، كما أن النظام الليبي قد اقترب من الأمريكيين بعد أن زاولوا الضغط عليه مؤيدين بأنظمة عربية واضطر للقبول النسبي ببعض فرضيات القطب الأمريكي.

ودخل الكثير من السياسيين العرب في تكتلات وتجمعات للبحر المتوسط أو الشرق أوسطية بعيداً عن الفكر القومي العربي الذي تحول إلي شبح لا يلوحون به إلا عند

الضرورات السياسية . وضعف بالتالي موقف العرب من قضايا شعوبهم في السودان والصومال ناهيك عن العراق وفلسطين، مما دعا أمريكا وإسرائيل للتفرد بمفاتيح الحل وتحديد المصير لأكثر هذه القضايا بعد أن غاب عنها العرب .

ولما كان القوميون العرب قد تركوا تراثاً من الصدام مع التيار الإسلامي السياسي بشكل دفعهم لمواصلة ذلك علي الصعيد الفكري وغيره ، فإن ذلك قد أسهم في محاولة أتباع هذا التيار لملأ فراغ انحسار التيار القومي مستخدمين أسلوب القوة والعنف بسبب استمرار بقايا القوميين في حصارهم وإغلاق سبل وجودهم علي الساحة السياسية ، فظهرت العديد من الجماعات الدينية لتعبر عن العجز العربي وتعتلي ساحة المقاومة ضد الاحتلال والنفوذ الأجنبي ، وعبرت عن نفسها في شكل جماعات معارضة كتنظيم القاعدة والجهاد وغيرها . وكان اصطدامها بالأنظمة السياسية العربية العاجزة ، وبقوى التدخل الأجنبي ، عاملا من عوامل تلاقي الأنظمة السياسية العربية مع محاور الدول الاستعمارية من جهة ، كما أن هذه الجماعات في ذاتها قد أصبحت تشكل خطراً وإضعافاً للأنظمة السياسية من جهة أخرى .

وبدا هذا الفراغ الأيديولوجي واضحاً في دور الجامعة العربية التي أصبحت أكثر صورية وضعفاً عن ذي قبل، صحيح أن دستورها وطبيعة تكوينها منذ بدايتها سنة ١٩٤٥ م كان صورياً عاجزاً عن القيام بأية مهام إيجابية، لكنها أمام علو التيار القومي العربي قد استعادت قدراً من أهمية وجودها، ثم عادت لتكون أكثر ضعفاً بعد انحسار هذا التيار وضعفه الذي كانت نهايته عند احتلال العراق .

وكانت من نتيجة ذلك أن ارتبطت سياسة بعض الدول العربية بسياسة المحاور الخارجية. وطرح ذلك نفسه علي القضايا العربية كمشكلة فلسطين ومشكلة لبنان ومشكلة العراق

ومشكلة الصحراء المغربية وغيرها . واستخدمت بعض الدول العربية نفوذها السياسي والاقتصادي لحل بعض هذه المشكلات دون الجامعة العربية كالدور السعودي في حل بعض جوانب مشكلة فلسطين ، ونفس الدور في لبنان ودارفور السودانية ، وكذلك في حل مشكلة العلاقات السودانية التشادية التي وصلت إلي حد الصدام المسلح بين البلدين ، ثم الدور القطري في حل مشكلة لبنان ، كل هذا في حضور شكلي وغياب فعلي للجامعة العربية .

ونتج عن ذلك الفراغ الأيديولوجي كذلك شروع بعض الدول العربية في فرض مناهج دراسية بقصد تجسيد الولاء القومي المحدود من خلال تدريس التربية الوطنية أو القومية في محاولة لقطع الطريق أمام الأيديولوجية الدينية حتى لا تسعى لملأ هذا الفراغ . وزُدت هذه المناهج من الاتجاه إلي التقوقع الإقليمي القومي كما هو في مصر أو السعودية وغيرها . لكن هذه المناهج التي تتبناها الأنظمة السياسية في الغالب قد واجهت أو اصطدمت . ومازلت . بالتراث الثقافي الإسلامي الذي يشكل الوعاء الأوفى في العقل العربي الذي يرفض هذا التقوقع ويخرج به إلي إطار الأمة المسلمة ، وبالتالي أوجد سبيلا للصدام بين المفكرين أو المثقفين وبين هذه الأنظمة وزُد من حجم المعارضة وعوامل التوتر.

كما أن الكثير من المفكرين ظلوا يربطون بين هذه المناهج الداعية إلي التقوقع والإقليمية المحدودة وبين الدعاوى الاستعمارية التي تهدف إلي تمزيق الأمة الإسلامية ثقافياً بعد تمزيقها سياسياً، وأن دول الاستعمار تسير في دعم المزيد من التفتيت لها بدعاوى حقوق الأقليات وتقرير المصير، إلي جانب الهدف الرئيسي المتمثل في سطحية التكوين والتثقيف للشعوب العربية واستمرارها في دائرة التلقي والتبعية ، ولعل كل هذا قد أعطي . وما زال . فرصة لنمو التيار الديني علي حساب غيره من التيارات الأيديولوجية .

* *